تعرض الاعضاء للتحطم واستطاع الانسان ان يسير سيراً حسناً في كل ادوار حياته واصبح اكثر اهلية لبلوغ شيخوخة كبيرة قليلة التعب والنصب . ولهذا يجدر ان يبحث في كل ملاجئ العجزة عن المكروبات المعوية في الخبز وعن الاغذية التي توافقهم . والى ان تصل الى نتيجة هذا البحث ننصح لمن يرغب في طول العمر مع سلامة العقل ان يعتدل في معيشته ويسير على القواعد الصحية التي ذكرناها آنفاً . انتهى الدكتور امين ابو خاطر

في بادية الشام

هاأنني وانا في الشياه من الجبروت الجنكيزي هُوَلٌ أوجست منها في نفسي خيفة واستشعرت من شرورها المستطيرة في العرب خشية . ولما ايقنت بان حكومة الترك التورانية قد عزمت عزماً شديداً ان تقضي على الروح القومية العربية قضاء مبرماً في طامة هذه الحرب الكبرى وذلك بالقضاء على اعيان العرب وفتيان قحطان وعلمت بعد ذلك انهم امروا زبانيتهم بالقبض عليَّ فاستجرت من المناطب بالسياسب ومن الموادي بالبوادي ولذت من عقاب العجزة الاشرار باجنباز عقاب المفاوز والاوعار . وما زلت لاهباً قيعة الاخفاء متوارياً عن العيون والرقباء يوماً بجبل الشيخ او جبل الثلج على رأي حسان و يوماً على متون الصافنات الجياد تقطع سهول حوران . ومن غرائب الاتفاق التقائي بصديقي جلال الدين الفخاري فارّاً من عدوان الاتراك فوافقني ورافقني حتى هبطنا البلقاء (موآب) والقينا عصا التسيار او القرار في عرب بني صخر الخيسين قرب قرية الزرقاء . وحللنا ضيفين مستجيرين على شاهر الخريشة ابن عم حديثة شيخ هؤلاء الاعراب ولم ننزل في سرادق الشيخ لسفرة الى دمشق لاستلام المرتّبة وهي الاتاوة التي يتقاضاها البدو مسالمةً من الترك

بنو صخر من الاعراب التي اتخذت البلقاء منازلها وهم ينقسمون الى قسمين الخريشات والفائز فالخريشات نسبةً لخريشة الأب الاول ويبلغ عددهم نحو ٥٠٠٠ نفس لا عيش لهم الاّ بابلهم التي ينقلون عليها الحمول بالاجرة صيفاً في عجلون وحوران و يحملونها عند تقريبهم وعودتهم من البادية ملحاً من قريات الملح الواقعة في فاتحة وادي السرحان من جهة الشام . ويعيشون ايضاً بالغزو المستديم وهو حرفة الاعراب من القديم وأكثر غزوهم للدروز وقد شاهدتهم يعيثون في قرى الشراكسة فساداً فيرعون مراعيهم و يقطعون من مغارسهم اشجار الصفصاف يتخذون منها اعمدة خيامهم واوتاداً

واقتضى الاختبار الطويل بصدق ما ذكرهُ مونتسكيو العرب ابن خلدون عن هؤلاء العرب وانهُ لا يريد بهم الأ الاعراب وان التبس هذا على كثير من الباحثين فاساؤا الظن بفيلسوفهم العربي الكبير . فان من جاب جزيرة العرب اليوم وعاشر اعرابها وسبر روحهم البدوية علم علماً لا يشوبهُ ريب ان الحضري لا يقصد بالعرب كما ذكرت سوى اهل الوبر لا المدر ومن اتخذوا بيوتهم من الشعر لا الحجر . وقد اعدت مطالعة مقدمتهِ مراراً وانا ملابسهم في ظعنهم وحلهم وغزوهم ورعيهم وايرادهم واصدارهم فكنت كلما زدت بالبادية اقامةً زدت باين خلدون اعجاباً وايقاناً بانهُ اعلم الناس بالبدو او على تعبيرهِ احياناً في مقدمتهِ بالعرب . ومن يقرأ الفصل الذي كتبهُ في « ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب » وقولهُ فيهِ : والخشب ايضاً انما حاجتهم اليهِ ليعمروا بهِ خيامهم ويتخذوا الاوتاد منهُ لبيوتهم فيخربون السقف عليهِ لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافيةً للبناء الذي هو اصل العمران » يشهد بان قولهُ هذا يحاكي قولي ان عرب الحرشان آفة الزراعة اليوم في البقاع . ولم تختلف احوال العرب في معائشهم وعوائدهم عن زمن ابن خلدون الأ اختلافاً يسيراً نشأ عن اختلاف احوال المدن . وعلاقة اهل البداوة باهل الحضارة مستحكمة العرى في جميع الازمان

هؤلاء هم الحرشان واما ابناء عمهم الفائز فعددهم نحو ١٥ الفاً يرأسهم شيخهم فوّاز وهو رجل منور الفكر لدراستهِ في مدرسة العشائر المؤسسة عهد عبد الحميد شديد النزعة الدومية معروف بين اخوانهِ باخلاقهِ الكريمة ولا يبعد ان يلعب دوراً خطيراً على مسرح الثورة العربية

بنو صخر ويقال لهم الصخور ايضاً ومنهم قسم يسكنون اليوم غور بيسان حجازيو الاصل لادعائهم القرشية والذي ذكرهُ القلقشندي في صبح الاعشى وفي نهاية الارب في اخبار العرب انهم من القحطانية بطن من جذام مساكنهم بلاد الكرك من الشام وتابعهُ الحمداني على ذلك ايضاً وهو اضرب في مفاصل العواب

وقد الفت والمرحوم[1] رفيقي بين ظهراني هؤلاء الصخور شهر ذي القعدة سنة ١٣٣٢ وفي الخامس من ذي الحجة انتقلنا لعرب السرحان الذين عزموا على التبدي وهو التشريق بلغة البدو

نزلنا في مضرب الشيخ خنيفس (تصغير خنفس) احد شيوخ السرحان وكان نازلاً بعربهِ على بعد مرحلة صغيرة من الزرقاء شرقاً في مراح يعرف بالادعم وهذا الاسم لم يذكرهُ ياقوت ومعنى الادعم في القاموس الفرس الذي في صدرهِ او لبتهِ بياض وكأنهُ كان في هذا المنزل بقعة كلسية بيضاء فسمي بالادعم تشبيهاً

(١) لانهُ القي عليهِ القبض بعد ذلك وشنق رحمهُ الله في دمشق مريئاً مظلوماً

على الحضري المتبدي سيما ان كان شريداً طريداً ان يتجلبب في البادية بجلباب الفقر والاعدام وان يعمل بنصيحة ذلك الرحالة المجرب القائل اذا سافرت فأخفر ذهابك وذهبك ولهذا رأيت ورفيقي ان نطلع الشيخ على حوزتنا لما سلبهُ متا عديمو المروءة من البدو وباطلاعه على حالنا المؤلمة تأثر ووعدنا بمساعدته ايانا بقدر ما في وسعه ولقد برَّ بوعده جزي خيراً

وعدد عرب السرحان نحو خمسة آلاف وبهم يسمى وادي السرحان الآتي ذكرهُ ومنهم من توطن الجوف (دومة الجندل) وسكاكة ومن شيوخهم ابن بالي وابن رافع وحقهُ ان يدعى ابن خافض لانهُ باق[1] اي سلب ضيوفهُ المرحومين عبد الغني العريسي والامير عارف الشهابي وعمر حمد وتوفيق البساط وباق ايضاً شيخ جبانا الخشب وما جاورها في جبل الشيخ (حرمون) وهو الشهم الكريم والعربي الصميم احمد مريود رعاهُ الله

ومن عادة البدو اذا شرقوا[2] ان يغلسوا في التحمل وهكذا لم يكد الصبح يشفس حتى عكت الاحمال وشالت الجمال الاثقال وشرتنا صباح الجمعة من الادعم وكنا نقطع يومياً مرحلة ست او سبع ساعات بمعدل ٢٥ كيلو متراً . وفي المرحلة الثانية جزنا بالازرق وهو اليوم خرابة بجانبها ماء ترده الاباعر . والازرق هذا احد قصور الامويين التي كان ملوكهم ينزلونها زمن التشريق . فقد روى صاحب كتاب العيون والحدائق (ص ١٢٠) ان الوليد بن يزيد كان يستوطنهُ في البرية . وذكر الاصفهاني في اغانيهِ انهُ كان ليزيد بن عبد الملك عدة قصور يتنقل اليها و يصيد كالزيزاء وفدين والازرق والاغدف

(١) البرقة في عرف البدو مخالفة فيما يجد المروءة البدوية المعروفة وهي بداية خرق القانون في عرف المتمدنين والباقي يعاقب في قبائل البادية عقاباً صارماً يشبه الحرم الكهنوتي وهو لا يؤاكل ولا يجالس ولا يسلم عليهِ وهكذا نال ابن رافع جزاءهُ الشديد حتى رد الاسلاب واكد للعرب النازلين في الحريم انهُ ظن الذين باتوا لوتا اي عدواً باصطلاحهم واراد بالقوم الدروز لانهم حينئذٍ كانوا قوماً معادين . ولفظة بوتة اسم مرة من فعل عر في فصيح قال في القاموس : (باتى جاء بالشر والمخصومات وفلان تعدى على انسان او هجم على قوم بغير اذنهم كباتى وباقوم سرقهم)

(٢) التشريق في عرف البدو هو الرحيل الى شرق بادية الشام وان الشتاء عند طلوع سهيل مرماً من البرد لقلة ثلوجهم وعدة سراييلهم الواقية ولان المياه تكثر في هذا الفصل للامطار فتكثر موارد الهيم مما يساعدهم على الاتجاع والارتياد فاذا جاء الربيع اعشوشبت الارض وانبتت من كل زوج من البقول بهيج فيكثر الرمث والزروع والشيح والقيصوم فتسمن انعامهم وتغزر البانهم وتنجو عشارهم على جهاد من الرمال وثير ما لا يحدونهُ في ارياف الشام . ولا يزالون في البوادي متنقلين حتى يدعهم الصيف بحراتهِ ويصوح النبت ويتولى البادية الجدب فيلوذون حينئذٍ بارياف البلقاء وعجلون ومزارع الغوطة وحوران والجولان وما يحمونهُ بالتقريب

والصحراء وقصر الابيض في الرحبة وعلى هذا يكون الوليد اقتدى بسكنى الازرق بابيه ومن يشابه ابهُ فما ظلم . وقال ياقوت « والازرق ماء في طريق حاج الشام دون تيماء » ولم يعين مقرهُ اذ بينهُ وبين تيماء مسافة كيلو متر ومن الازرق للهزيم مرحلتان قصيرتان ومنهُ لبصرى مرحلة على الطريق الرومانية المستقيمة التي يرجح انها كانت طريق عبد العزيز في خروجهِ على الوليد كما ذكرهُ الرحالة دوسو (Dussaud)

واما انا فلقد شرّفت عملاً بقول الشاعر :

وغرّب فالتغرب فيهِ خيرٌ وشرّق ان بريقك قد شرفتا

ولعمري لقد شرفت من فظائع التورانيين ايما شرق فشرّفت مع السرحان معبراً عن لسان حالي بلسان مقالي هذا :

فان السُّرى والليل يقرس بردهُ وحيري في البيداء معتسفاً يومي

وذرع الفلا ما عشت في غربة النوى وحيداً فلا كلي يطيب ولا نومي

لأفضل لي والله يا عاذليَّ من مشاهدة التركي يقضي على قومي

ويدين هؤلاء العرب في التشريق قديم عهدهُ فقد كانوا ايام بني امية يشرقون في بادية الشام في شتاء كل عام وهو ما يسمونهُ بالتبدّي ولم يذكر ابن عساكر وصاحب الاغاني ملكاً اموياً الأ ذكر تبديهُ فكان خالد بن يزيد يسكن قصر قدين في البلقاء واطنهُ القصر الذي يجاور اليوم عين الزرقاء ويدعوهُ العرب قصر تبّع كعادتهم بنسبة كل بناء عبقري الى سليمان كما فعلوا بنسبة بناء تدمر بالصفاح والعمد وبنسبة الابلق الفرد

واخبرني بنو صخر ان بني هلال احتازوا بهذا القصر وحاربوا ربهُ ايام هجرتهم من الحجاز للغرب ومنعوهُ الماء ولهذا القصر الصالح للسكنى اذا رمّ مناظر طبيعية سبتني محاسنها وراعتني جدًّا كما راعت من قبلي خالد بن يزيد واولاد خليفة عثمان وفي الآثار عبرة لاولي الافكار

ذكرنا ان الوليد كان يتبدى الى الازرق وكان يقطن الزيزاء والقسطل في البلقاء التي يلقبها العرب اليوم بذيل البادية وكان مناوبة يشتو بالصنبرة في الاردن وبهِ اقتدى عبدالملك الأ انهُ كان بعد الصنبرة يقضي في الجابية شهر آذار وكان يبلغ بهِ التبدي احياناً ان يصل دومة الجندل المدهاة بالجوف اليوم حيث كان لهُ من واحتها الغناء متنزه جميل يحاكي متنزه الامير نواف الشعلان حاكم دومة الجندل في يوم الناس هذا

عز الدين
آل علم الدين

« للبحث صلة »